

حكمة ابن حزم وفلسفته

حكمٌ قديمة ولكننا جديدة

كان الوزير الحافظ ابو محمد علي بن احمد بن سعيد (بن حزم) الاندلسي الظاهري اماماً من ائمة الاندلس الاعلام . وكان الفيلسوف الاكبر (ابن رشد) يرد عليه في بعض كتبه كلما عرض له رأي مخالف لرأيه . وحسبنا ذلك دلالة على منزلة (ابن حزم) من الحكمة والفلسفة . وقد ورد في كتابنا ابن رشد وفلسفته (عبارة ردِّ بها هذا الفيلسوف على زميله وان كان مشاركاً له في كثير من الآراء والاحوال اخصها الاضطهاد الذي اصاب ابن حزم من اجل مبادئه وتعاليمه (١) . واتفق اننا قبل السفر من مصر شرعنا في قراءة كتاب (ابن حزم) في (مداواة النفوس وتهذيب الاخلاق والزهد في الرذائل) فاعجبنا فيها آيات باهرات في الحكمة والفلسفة . فلما شرعنا في إعداد مواد الجامعة هنا وكان الفكر لا يزال متبلبلاً . والعزم متقلباً . والعقل بين آثار نيويورك ومفاخرها متنقلاً . فقد رأينا من الفائدة لنا ولقرائنا ان نملأ شيئاً من فراغ المجلة بحكمة هذا الجيهنذ الحكيم

والتأمل في الشذرات التالية المقتطفة بكل تروٍّ وامعان من جميع اجزاء الكتاب يعجبه منها امران ويدعوه امر ثالث الى التفكير والامعان . اما ما يعجبه فهو اولاً جمال لغة ابن حزم ولطف تعبيره ورقة اسلوبه . والامر الثاني ان كثيراً من حكمة ابن حزم ينطبق على لباب النواميس الطبيعية والشرائع العليا الادبية اتم انطباق (٢) وهذا ما يوجب الاهتمام بها اذ لولا ذلك لكانت كغيرها مما كتبه المتقدمون نسيج ترهات وخليط خرافات . وهذا الامر هو الفارق الحقيقي بين التمدن الحقيقي والتمدن الباطل . والفلسفة الحقيقية والفلسفة الباطلة . نغني ان كل شريعة وكل فلسفة وكل مبدأ لا تبنى على (التاموس الطبيعي والشريعة الادبية العليا) فانما هي عبارة عن بيت من الرمال ينهدم عند هبوب اخف ريح من الجنوب

(١) قال الفيلسوف ابن رشد في كتابه (تعافت التعافت) في رده على الامام الغزالي بمسألة تلازم الاسباب والمسببات (لذلك العقل ليس بجائز فيمكن ان يتخلق على صفات مختلفة كما توهم ذلك ابن حزم) (ابن رشد الصفحة ١٠٧)

(٢) وهذا لا يمنع ان يكون فيها كثير من الاوهام والآراء الضعيفة المرجوحة

او من الشمال . ألا ترى ان مؤلفي القدماء عند العرب يعدّون بالالوف ولا يُعدّون بالآ يضع عشرات منهم . فالفارق بينهم انما هو نخلهم بنخل النواميس الطبيعية والشرائع الادبية الحقيقية . وهذا سبب ارتفاع (ابن رشد) في اوروبا وسائر العالم المتمدّن على جميع علماء العرب حتى الفيلسوف ابن سينا نفسه الذي كان مشهوراً بين ابناء المشرق اوسع شهرة حالة كون علماء الافرنج لا يكرمونه اليوم نصف اكرامهم لابني الوليد

واما الامر الذي يدعو الى التفكير والامعان فهو ما يستشفه القارئ من خلال كلام ابن حزم من خصومات كان حساده يطاردونه بها وعداوات مها فعل لم يكن يستطيع ازالتها . وهذه على ما يظهر من (لزوم ما لا يلزم) عند حكماء الزمان في كل آن . وما برحت الجهالة والشناعة عدوة للحكمة والجمال . — والان نقل شيئاً من حكمة ابن حزم على ان نعود الى ترجمته وفلسفته في جزء آخر

١ سوء الظن يعدّه قوم عبياً على الاطلاق وليس كذلك الا اذا ادى صاحبه الى ما لا يحلّ في الديانة او الى ما يقبح في المعاملة والا فهو حزم والحزم فضيلة
٢ حدّ العدل (اي تعريفه) ان تعطي من نفسك الواجب وتأخذه . وحدّ الجور ان تأخذه ولا تعطيه

٣ اول من يزهد في الغادر من غدر له الغادر . واول من يمقت شاهد الزور من شهد له به

٤ لكل شيء فائدة ولقد انتفعت بمحكّ اهل الجهل منفعة عظيمة وهي انه توقّد طبعي واحندم خاطري وحيي فكري وتهيج نشاطي فكان ذلك سبباً الى تأليف عظيمه النفع . ولولا استنارتهم ساكني واقتداحهم كامنّي ما انبعثت لتلك التأليف

٥ لا تصاهر الى صديق ولا تباعه فما رأينا هذين العاملين الا سبباً للقطيعة . وان ظن اهل الجهل ان فيها تأكيداً للصلة فليس كذلك . لان هذين العقدين داعيان كل واحد الى طلب حظ نفسه . والمؤثرون على انفسهم قليل جداً

٦ صدق من قال ان العاقل في الدنيا متعوب . وصدق من قال انه فيها مستريح . فاما تبعه فما يرى من انتشار الباطل وغلبته دولته . وبما يحال بينه من اظهار الحق . واما راحته فمن كل ما يهتم به سائر الناس من فضول الدنيا (١)

٧ ان لم يكن لك عدو فلا خير فيك ولا منزلة اسقط من منزلة من لا عدو له (١)
 ٨ لقد سألتُ بعضهم في رفق ولين عن سبب علو نفسه واحتقاره الناس فما وجدتُ
 عنده مزيداً على ان قال لي (انا حرّ لستُ عبد احد) فقلت له : اكثر من تراه يشاركك
 في هذه الفضيلة فهم احرار مثلك الاً قوماً من العبيد هم اطول منك يداً وامرهم نافذ عليك
 وعلى كثير من الاحرار (٢) فلم اجد عنده زيادة فرجعت الى تفتيش احوالهم ومراعاتها
 فافكرتُ في ذلك سنين لاعلم السبب الباعث لم على هذا العجب الذي لا سبب له . فلم ازل
 اخبر ما تنطوي عليه نفوسهم بما يبدو من احوالهم ومن مرامهم في كلامهم فاستقرّ امرهم على
 انهم يقدرّون ان عندهم فضل عقل وتميز راي اصيل لو امكنتهم الايام من تصريفه
 لوجدوا فيه متسعاً ولأداروا الممالك الرفيعة ولبان فضلهم على سائر الناس : — كما نقص
 العقل توهم صاحبه انه اوفر الناس عقلاً (٣)

٩ ليس من الحلم تقرب الاعداء ولكنه مسالمتهم مع التحفظ منهم

١ نجد فرط المودة يلتقي مع فرط البغضة في تتبع العثرات

١١ الخطاء في الحزم خير من الخطاء في التضييع

١٢ من اراد الانصاف فليتوهم نفسه مكان خصمه فانه يلوح له وجه تعسفه

١٣ ثق بالمتدين ولو كان على غير دينك ولا تثق بالمستخف وان اظهر انه على
 دينك (٤)

١٤ حدّ العفة ان تغض بصرك وجميع جوارحك عن الاجسام التي لا تحل لك فما

(١) قد يكون هذا القول صحيحاً وقد يكون باطلاً

(٢) هنا غمزة هائلة لا يعرف مراده بها (٣) كل من يقرأ هذه الشذرة

الجميلة يظن انه يقرأ شيئاً من حكمة حكماء الفرنسيين المشهور «لابرويير» صاحب
 كتاب «الاخلاق» الذي قال فيه العلماء المتأخرون «انه احد كتب قليلة تشرف العقل
 الفرنسي خارج فرنسا خصوصاً عند الامم المجدية كالانكليز والاميركان» وذلك لان
 الفرنسيين مشهورون بالخفة كما يقولون . وتشبيهاً بحكمة ابن حزم بحكمة لابرويير
 اعظم ثناءً على ابن حزم (٤) كان الاسبانيون واليهود في الاندلس مختلطين
 بالعرب اشدّ اختلاط وقد كان زمن عاش فيه الثلاثة «المسيحيون والمسلمون
 واليهود» في الاندلس بائتلاف تام وذلك في عهد المحكم كما فصلناه في كتاب «ابن
 رشد وفلسفته» فقد يكون في هذه الشذرة اشارة الى ذلك الائتلاف

عدا هذا فهو غير

١٥ استبقاك من عاتبك وزهد فيك من استهان بشانك : — العتاب للصديق كالسبك للسبيكة فاما تصفو واما تطير

١٦ لا تكلف صديقك الاً مثل ما تبذله من نفسك فان طلبت اكثر فانت ظالم

١٧ اذا ارتفعت الغيرة (يريد بين المحبين) فايقن بارتفاع المحبة

١٨ اخبرني بعض من محبناه في الدهر عن نفسه انه ما عرف الغيرة حتى ابلي

بالمحبة (١) وكان هذا المخبر فاسد الطبع خيث التركيب الا انه من اهل الفهم والوجود

١٩ « الحلاوة » دقة المحاسن ولطف الحركات وخفة الاشارات . ورب جميل الصفات

« يعني جميل المنظر » على انفراد كل صفة منها بارد الطلعة غير مليح ولا حسن ولا رائع .

وهي ايضاً « الفراهة » — « الحسن » هوشي ؟ ليس له في اللغة اسم يعبر به عنه ولكنه

محسوس في النفوس باتفاق كل من رآه . وهو يرد مكسو على الوجه واشراق يستميل القلوب

نحوه فيجتمع الآراء على استحسانه . وان لم تكن هناك صفات جميلة « اي اعضاء واجزاء

جميلة » فكل من رآه راقه واستحسنه وقيله حتى اذا تأملت الصفات افراداً لم تر طائلاً .

وكانه شي ؟ في نفس المرئي يجده نفسه الرائي (٢)

٢٠ درج المحبة خمسة . اولها « الاستحسان » وهو ان يتمثل الناظر صورة المنظور اليه

حسنه او يستحسن اخلاقه وهذا يدخل في باب التصديق (٣) ثم « الاعجاب » وهو رغبة

(١) ليس في هذا القول غرابة لانه امر طبيعي . وانما الغرابة والملاحة في ان

يقول مثلاً « ما عرف المحبة حتي غار » لان الغيرة اقوى مذكيات نار المحبة

(٢) هذا ما يسميه الباريزيون (chic parisien) ومن امثالهم في وصف

امراة لا يدرك معنى جمالها ادراكاً تاماً اذا نظر الى اجزاء وجهها افراداً وهي مع

ذلك اجمل من الجميلات

elle a (je ne sais quoi) de sublime et de beau

(٣) من الغرابة ان نجد هذا الراي في التمدن الاندلسي لان الشريعة الاسلامية

تمنع « الصداقة » بين الرجل وامراة من غير زوجه واهله . اما الافرنج اليوم فعذه

المسألة عندهم من المسائل العائلية المعمة وهي « هل يمكن ان تتخذ المرأة في العائلة

صديقاً لها يعاملها وتعامله معاملة الصديق لصديقه دون ان يخشى من خطر وقوع

الحب بينهما »

الناظر في المنظور اليه في قربه . ثم « الالفة » وهي الوحشة اليه اذا غاب . ثم « الكلف » وهو غلبة شغل البال به وهذا النوع يسمى في الغزل العشق . ثم « الشغف » وهو امتناع النوم والاكل والشرب الا اليسير من ذلك . وربما ادى ذلك الى المرض او الى التوسوس او الى الموت

٢١ لقد طال هم من غاظه الحق

٢٢ رأيت الناس في كلامهم الذي هو فصل بينهم وبين الخير والكلاب والحشرات ينقسمون اقساماً ثلاثة « احدها » من لا يبالي فيما اتفق كلامه فيتكلم بكل ما سبق الى لسانه غير محقق نصر حق ولا انكار باطل وهذا هو الاغلب في الناس « والثاني » ان يتكلم ناصراً لما وقع في نفسه انه حق ودافعاً لما توهم انه باطل . غير محقق لطلب الحقيقة لكن لجأاً فيما التزم وهذا كثير . وهو دون الاول « والثالث » واضع الكلام موضعه وهذا اعز من الكبريت الاحمر

٢٣ مما ينجع في الوعظ الثناء بحضرة المسيء على من فعل خلاف فعله . فهذا داعية الى عمل الخير وما اعلم لحب المدح فضلاً الا هذا وحده

٢٤ من وعظ يبشر وتبسم ولين كانه مشير برأي ومخبر عن غير الموعوظ بما يستقبح من الموعوظ فذلك ابلغ وانجح في الموعظة . وكان صلى الله عليه وسلم « يعني الرسول » لا يواجه بالموعظة لكن يقول « ما بال اقوام يفعلون كذا »

٢٥ تأملت كل ما دون السماء وطالت فكرتي فوجدت كل شيء فيه من حي وغير حي طبعه ان قوبى ان يقلع عن غيره من الانواع كفيئاته ويلبسه صفاته . فترى الفاضل يود لو كان الناس فضلاء . وكل ذي مذهب يود لو كان الناس موافقين له . وترى ذلك في الغياض اذا احال بعضها على بعض احاله الى نوعيته وترى ذلك في تركيب الشجر وفي تغذي النبات والشجر والماء ورطوبة الارض واحالتها ذلك الى نوعيتها (١) فسبحان مخترع ذلك ومدبره — ثم لا ترى احداً يشبه آخر شيئاً لا يكون بينهما فيه فرق . وقد سألت من طال عمره وبلغ الثمانين عاماً هل رأى الصور (٢) في ما خلا مشبهة لهذه شيئاً واحداً . فقال لا . بل لكل صورة فرقها . وهكذا كل ما في العالم يعرف ذلك . لكن من تدبر

(١) ادهشنا هذا لقول من ابن حزم لانه تقدم به « درون » العالم المشهور بعدة قرون . ولكن لا غرابة في ذلك فان في كثير من مبادئ المتقدمين بزور مبادئ المتأخرين (٢) يعني صور الموجودات اي اشكالها التي تتشكل بها

الآلات وجميع الاجسام المركبات وطال تكرّر بصره عليها فانه حينئذ يميز بينها ويعرف بعضها من بعض بفروق (١)

٢٦ محن الانسان في دهره كثيرة واعظمها محنته باهل نوعه من الانس : داء الانسان بالناس اعظم من دائه بالسباع الكلبة والافاعي الضارية لان التحفظ من كل ما ذكرنا ممكن ولا يمكن التحفظ من الانسان اصلاً

٢٧ ما رأيت العجب في طائفة اقل منه في اهل الشجاعة واستدالت بذلك على نزاهة انفسهم ورفعتها وعلوها

٢٨ لعل علمك الذي تعجب بنفاذك فيه من العلوم المتأخرة التي لا كبير خصلة فيها كالشعر وما جرى مجراه (٢)

٢٩ لا شيء اضر على السلطان من كثرة المتفرّغين حواليه « يعني الذين لا شغل لهم » فالحازم يشغلهم بما لا يظلمهم فيه فان لم يفعل شغلوه بما يظلمونه فيه (٣)

٣٠ العلوم الغامضة كالدواء القوي يصلح الاجساد القوية ويهلك الاجساد الضعيفة
٣١ من سرّ بشجاعته فليعلم ان الثمر اجرأ منه . وان الاسد والذئب والفيل اشجع منه . ومن سرّ بقوة جسمه فليعلم ان البغل والثور والفيل اقوى منه جسماً . ومن سرّ بجملته الاثقال فليعلم ان الحمار احمل منه . ومن سرّ بسرعة عدوه فليعلم ان الكلب والارنب اسرع عدواً منه . ومن سرّ بحسن صوته فليعلم ان كثيراً من الطير احسن صوتاً منه . فاي غفر واي سرور في ما تكون فيه هذه البهائم متقدمة عليه . لكن من قوياً تمييزه واتسع علمه وحسن عمله فليغتبط بذلك

(١) هذا القول من المدهشات ايضاً وتفسيره باللغة الفلسفية الحديثة ان المادة في جميع الموجودات واحدة في الارض كما اثبت ذلك العلامة برتولو الكيماوي الفرنسي المشهور وانما تتخذ اشكالاً « صوراً » مختلفة . وهو ما يسمونه

La diversité dans l'unité

٢ نظن ان شعراءنا الافاضل يتعزّون بعض الشيء بهذا الكلام من ابن حزم عن شعراء الاندلس في عصره . وبه يستدل على مقام الشعر يومئذ
٣ هذا الكلام البديع لا يحتاج الى حاشية لانه مفهوم بنفسه